جدلُ الثقافة والاقتصاد

من سلطة العقل الأداتي إلى سلطة العقل الرقمي

ـ قراءة تفكيكية في أنظمة المصطلح المعرفية ـ

عبد الغني بــــارة

جامعة سطيف

فاتحة القراءة :

إنّ الهمّ الذي لأجله يقوم هذا البحث ، هو الحفر والنّــبش فـــي الأنســاق المعرفية والأجهزة المفاهيمية التي تقف وراء تشكّل المفاهيم والمصطلحات في إطار ما يعرف اليوم بــ"فتوحات العولمة"، أو"كشوفات ما بعد الحداثة"، حيث تمّ الانتقال من المصطلح النّقدي إلى الثقافي إلى الاقتصادي (الرقمي/ الإلكتروني)، وبدل الحديث عن العقل البشري أضحى الاهتمام منصبًا على العقــل الآلــي ، وانتهى دور الإنسان مرسِلاً ليُفسَح المجال إلى نظام الوسائط التي تتــيح نقــل المعطيات والعلامات وإدارة الأعمال والأموال على بعد، وفي زمن قياســي ، يقاس بسرعة الضوء ، أو قل"سرعةَ الفكر"على حدّ تعبير أحــد علمـــاء هــذه المعرفة الجديدة (العالم المُعَوْلَم) .

فقد شهدت نهاية القرن العشرين ثورة معرفية تغيّر معها النظام المفــاهيمي للحضارة البشرية ؛ إذ في ظلّ العولمة انتشرت أنماط من التفكير يتمّ أرضنتها « وَفق معيارية اقتصاد السوق وقيمــه وأخلاقياتــه . ومـــا معياريـــة"حقــوق الإنسان"التي تخفي وراءها معيارية إنسان السوق سوى تضليل يراد به تشــكيل

رأي عام وشمولي، يهدف إلى تحقيق إجماع قادر على أوُربة الشعوب والـدول والسوق عبر عولمة تقف حاجزًا في وجه صيرورة الشعوب الخاضعة الضعيفة، وتريد إعادة مطابقتها للنموذج الأوربي قصرًا»[1] ، بل تقود عولمة الاقتصـاد، والقول لأحد الباحثين ، قافلة العولمة جارّة وراءها عولمةَ الثقافة[2] .

هذا ما يجعل اللّغة ، باعتبارها أساس تشكيل هذا المجتمع الجديد، تدخل في قلب الصراع ، أو قل هي من بيده حسم المواجهة، فهـي ذات قيمـة سـوقية بالدرجة الأولى ، على اعتبار أنّها بضاعة يتمّ تسويقها ، فتكتسب قيمة تبادلية ، وهو الأمر الذي من خلاله تنتشر اللّغات ويتمّ تداولها، كما تسـهمْ الترجمـة ، والحال كذلك ، في توسيع هذا الانتشار والحفاظ على قيمة اللّغات ، فهي ، أي الترجمة ، يجب « أن تفهم باعتبارها استثمارًا طويل الأمد من أجل الحفاظ على قيمتها أو زيادتها. وحيث إنّ كلّ ترجمة إلى لغة تضيف قيمة إليها فإنّه يمكـن النظر إلى مجمل كلّ الترجمات إلى لغة مـا باعتبـاره مؤشـرًا آخـر علـى قيمتها»[3].

هذه القيمة ، بوصفها سوقيةً ، أوّلاً وقبل كلّ شيء ، بحكم صفة التبادل للغة، لا تتحدّد إلاّ بجملة من العوامل ، أبرزُها العواملُ الاقتصاديةُ ، التي تُعدّ أساس القيمة الاستعمالية للغة بين نظيراتها في سوق اللّغات الأجنبية[4] . بل إنّ البعض ذهب إلى حدّ اعتبار اللّغة أهمَ مورد« اقتصادي تتعذّر من دونه إقامةُ صـناعة ثقافية ناجحة ، سواء في مجالات التعليم أو الترفيه أو التثقيف . . . لقد بـات لزامًا علينا أن نعيد النظر من منظور اقتصادي ، إلى قضايا تعريب التعليم وما يتعلّق بها من أمور، والتوسع في المدارس والكليات التـي تـدرّس باللغـات الأجنبية»[5].

لكن ، في المقابل ، تبقى القيمة الثقافية للّغة ، باعتبار أنّ الثقافة هي الخلفية المعرفية التي يستقيم بها حال العوامل كلّها ، بما فيها الاقتصادية ، مـا دام أنّ

برامج التخطيط داخل الدول تقوم على الرؤية الشمولية ، التي ترى إلى التنمية كبناء هرمي ، تشكّل الثقافة أعلاه ، وتأتي باقي عناصر البناء كأجزاء فاعلة ، تؤدي وظيفتها في إطار ما يستدعيه هذا البناء .

إنّه مجتمع ما بعد الصناعة ، حيث تمّ تجاوز المنظومة المصطلحية التقليدية التي يتمّ تداول المعرفة بها ، فبدل التعامل مع وسائل النقل كالقاطرة والطائرة في نقل البضائع والمعدّات ، أصبح التعامل ــ في ظلّ الثورة الإعلامية والعددية ــ مع الواقع من خلال المنتوجات الإلكترونية ، الأثيرية وشبه المادية ، من الصور والرموز والأرقام والعلامات[6]. الأمر الذي يجعل الحدود تتآكل بين الدول والمجتمعات ، وتتلاشى الهويات الثقافية والخصوصيات الحضارية ، فقد تغيّر المشهد العالمي ، « وتغيّرت معه خارطة العلاقات بالأشياء والكائنات : بالزمان والمكان ، بالاقتصاد والإنتاج ، بالمجتمع والسلطة ، بالذاكرة والهوية ، بالمعرفة والثقافة »، فقد ظهرت مفاهيم جديدة هي نتاج هذا العالم المعولم/ المرقمن ، منها،« عولمة الزمان ، كونية المكان ، رمزية العمل ، عمال المعرفة ، وحدة السوق ، التجارة الإلكترونية ، القيمة المضافة ، الطريق السريع للإعلام ، الثورة العددية ، الطوائف السبرانية ، المدينة العالمية ، سوق النظر ، الميدياء ، عولمة الأنا، اختراق الهويات ، تداخل الكوني والمحلّي »[7] .

العولمة ومنطق التحول المعرفي:

غير أنّ الكثير من المفكرين والباحثين ، في العالمين العربي والغربي ، استقبلوا العولمة برفض صارخ ؛ إذ اعتبروها ذلك الخطر الزاحف الذي يعمل على قتل إنسانية الإنسان ، وتحطيم أحلامه وآماله في بناء مجتمعه ، فهذا "الجابري"، يرى بأنّ العولمة إيديولوجيا تطرح حدودا أخرى، غير مرئية ترسمها الشبكات العالمية بقصد الهيمنة على الاقتصاد والأذواق والفكر والسلوك[8] . أمّا عالم الاجتماع الفرنسي"بيار بورديو"، فيرى بأنّ العولمة لا

تعدو أن تكون ليبرالية جديدة « شرسة ووحشية ، إذ هي تقـوم برأيـه علـى التنافس والصراع ، بمنطق داروينى اصطفائي ، بقدر ما تدمر بشكل منهجـي الأطر التي تحفظ التوازن وتؤمّن التضامن في المجتمع ، ممثّلة بالدولة والحزب والنقابة والعائلة ، وسواها من الهيئات والتجمعات التقليدية »(9) .

هذه القراءات وغيرها تدخل في دائرة القراءة الإيديولوجية ، حسب علـي حرب ، إذ تعبّر عن البعد اليوتوبي في قراءة مشروع العولمة ، هـي قـراءة المثقّف النخبوي الذي يرى إلى التغيرات الطارئة على العالم بمفـاهيم قديمـة أضحت مجرّد شعارات خاوية ، إنّها أوهام النخبة التي تؤمن بالوثوقية والمطلقية ، معبّرة عن عجزها على مواكبة الجديد، وإعطاء تفسـير معاصـر للحقيقـة والوجود(10) . فالعولمة ، يضيف علي حرب ، « ليست مجرّد أدلوجـة يمكـن نقضها ولا هي مجرد مظهر للأمركة تنبغي مقاومته ، وإنّما هي معطى وجودي يمكن تحويله بالاشتغال على الأفكار والعمل على تغييرها أو على إعادة ابتكارها لنسج علاقات جديدة مع الحقيقة »(11) .

أمام هذه التحولات المعرفية ، في منظومة المفاهيم ، أضحى مفيدًا القول ، إنّ المصطلحات باعتبارها بوابة العلوم ومفتاحها، فهي أوّل مظهر تتبدّى فيـه هذه المعرفة الجديدة ، أو قل هي الوسيط الذي يعمل على ربط البعيد بالقريـب والدخيل بالأصيل ، بل وحتّى الثقافي بالاقتصادي ، لأنّه ، أي المصطلح ، في المحصّلة ، نتاج محاضنَ معرفية كبرى يُصطلح عليها"الأنظمة المعرفية"للثقافة الواحدة ، حيث ينشأ المصطلح ويتشكّل قبل أن يُبعث به إلى سـوق الـرواج ، حيث التداول والانتشار . فتزول ، إذ ذاك ، الحدود بين العلوم والمجـالات ، ويصبح المصطلح المتداول في مجال النّقد أو الأدب مرتبطا معرفيًا بقرينه في الاقتصاد والسوق ، أو قل يسيران ويعملان جنبًا إلـى جنـب ، وإنْ تعـدّدت المسميات .

وهذا، فيما يحسب الباحث ، من ثمار العولمة ، إذ كما تمّ ذكره ، جرّت عولمة الاقتصاد معها عولمة الثقافة ، فكما يدور الحديث ، في مجال الاجتماع ، عن تآكل الحدود وتلاشي الهويات ، يشيع في الاقتصاد القول عن انتشار الشركات متعدّدة الجنسيات ، وإلغاء الأسواق الوطنية وتعويضها بالأسواق العالمية ، أمّا في عالم الإعلام الآلي ، فالكلام يدور حول المجتمع السبراني أو مجتمع الإنترنت ، حيث يتشكّل مجتمع تقني جديد لا يعترف بالحدود أو الهويات، وإذا جئنا إلى عالمِ النّقد، فمدار الكلامِ عن نظرية التناص ، حيث تتمّ هجرة النصوص وارتحالها داخل الثقافة الواحدة ، أو من ثقافة إلى أخرى ، كما تتعدّد النصوص وتتداخل على سطح النصّ الواحد، بل وتتعدّد قراءة النصّ الواحد قراءات متعدّدة ، وهذا بفضل ما يعرف بالقارئ الذي تعدّدت النظريات حوله قصد ضبط مفهوم قارّ له ، من قارئ نموذجي إلى قارئ مثالي ، إلى قارئ مخبر، إلى قارئ مبدع ، إلى قارئ تفاعلي ، إلى قارئ أعلى ، وصولا إلى القارئ التواصلي كثمرة من ثمار الرؤية التداولية ، حيث يتمّ الحديث عن المجتمع التداولي/ التواصلي . وغير بعيد عن هذا التواشج والاتساق يتمّ الحديث عن"المترجم الآلي"كمنحى جديد اقتضاه ميلاد النصّ الإلكتروني ، وكذا الحديث عن"الترجمة الفورية"، تجسيدًا لآفاق المجتمع التداولي ، حيث يكون التواصل مباشرة دون إحساس بالدونية أو العجز، أو أفضلية لغة على لغة ، إذ الغاية ، في المحصّلة ، هي التواصل بين الإنسان وأخيه الإنسان .

هذا التداخل في المفاهيم ، يعضّد ما تمّ إقراره سلفًا، وهو أنّ هناك أجهزة مفاهيميةً تتحكّم في صياغة المصطلحات وتشكيلها داخل الثقافة الواحدة ؛ فالثقافة الغربية انتقلت ، مثلاً، من خلال ما تمّ عرضه ، من سلطة العقل/ النّسق/ الأداتي/ المتعالي ، في إطار ما يعرف بفلسفة العقل ، أو الفلسفة التنويرية ، حيث يُعزى للعقل سلطةُ إنتاج المعرفة والبحثُ عن الحقيقة ، إلى سلطة

اللاّعقل/ الشكّ/ العدمية ، في إطار ما يعرف بفلسفة التفكيك أو الاختلاف ، حيث تمّ الإعلان عن إعادة صياغة مبادئ الفلسفة بإلغاء اليقينيات التي أقرّها العقل/ اللوغوس، ولا يكون ذلك إلاّ بتقويض مركزيته وإثبات هشاشة فروضه ، ومن ثمّ أصبحت الحقيقة وهماً، فتعدّدت واختلفت باختلاف زوايا النظر، أو قل أضحت رؤية منظورية بمصطلح نيتشه ، لنصل إلى ما يعرف بسلطة العقل التواصلي/ الحواري/ المتعدّد، حيث يحاور العقل جانبه الآخر اللاّعقل ، وصولا إلى العقل العددي/ الرقمي/ الآلي/ الإلكتروني/ الوسائطي ، حيث تمّ إشاعة سلطة النهايات (نهاية التاريخ ، نهاية الإنسان/ المؤلف ، نهاية الميتافيزيقا، نهاية الايديولوجيا، نهاية المثقف ، نهاية المكتبة ، نهاية القومية ، نهاية الدولة ، نهاية المدرسة . . .) كبيان تأسيسي (مانفستو) عن ميلاد مرحلة جديدة في تاريخ الجنس البشري ، يصطلح عليها بمرحلة"ما بعد الإنسان"POSTHUMAIN . فيها يُتجاوز الإنسان المؤنسن بكلّ ما يحمله من طوباوية ودعاوى الحرية والعدالة وغيرها من الشعارات إلى كائن بشري جديد يصطلح عليه"الكائن الوسيط"MEDIUM ، الذي يلغي ذاته وكينونته متجاوزًا صراعاته ، داعيًا إلى الحوار والتواصل .

وتراجعُ الإنسان المؤنسن أمام الإنسان العددي HOMME NUMERIQUE ، ليس وليدَ المجتمع المعولم فحسب ، وإنّما هو تطور طبيعي لمسار العقل في الفكر الغربي ، إذ منذ أن فُسح المجال للعقل في القرن السادس عشر على يد الفلاسفة التجريبيين ، ووصولاً إلى فلاسفة العقل ، كانط ، ديكارت ، هيغل ، تمّ إقباره والإجهاز على طموحه في جلب السعادة لنفسه ، وليس أدلّ على ذلك من الحربين الكونيتين ،كثمرة من ثمار العقل ، وما إعلان "فوكو"موت الإنسان في النصف الثاني من القرن العشرين إلاّ فضح لمركزية العقل الغربي ، فأصبح الحديث عن الأنساق والبنى والأنظمة ، وإمبراطورية

العلامات ، وسلطة النصّ ، وتشكيلات الخطاب ، والكتابة ، ولم تعد اللّغة مرآة تتجلّى(*) فيها الأشياء ، وإنّما هي بيت الوجود الذي يسكنه الكائن ، على حد تعبير هيدغر، فالأشياء تخرج منها كائنات لغوية لا علاقة لها بالواقع ، وانتهى دور الإنسان دالا ؛ إذ لا يقول ما يعني ، وإنّما اللّغة تعني ما تقول . فالحقيقة ، إذا، لم تعد من إنتاج الإنسان في علاقته بالواقع ، بل هي من إبداع هذه الأنظمة النصّية ، التي تخلق واقعها الخاص ، الواقع النصّي ، النصّ المكتوب ، الذي تحوّل في ظلّ الثورة المعلوماتية إلى"واقع فائق"HYPERREEL ، ومن ثمّ "النصّ الفائق" HYPERTEXTE ، النصّ الإلكتروني ، وانتهى ، إذا، دور الأنا المتعالية ، والذات المفكرة ، والقارئ الأعلى ، النموذجي ، المثالي ، الذي يعيد كتابة النصوص وإنتاجها بوصفه فعالية قرائية تعيد بعث المكتوب وجعله فاعلاً عبر فعل القراءة ، ليفسح المجال أمام القارئ السبراني/ الأثيري ، الذي يعبّر عن مرحلة"ما بعد الإنسان"، أو"الإنسان العددي"، أو الكوكبي أو الإنسان الأخير أو الإنسان العابر(*) L'HOMME ALEATOIRE ، ككائن بشري جديد، إنّه الإنسان « الوسيط الذي لا يعتبر نفسه أفضل من بقية الكائنات ، بل الذي يعيش وسط الطبيعة بوصفه جزءًا من موجوداتها، والذي تقوم العلاقة بين أفراده على اختراع الوسائط وخلق الأوساط من أجل التواصل والتعايش . . . مثل هذا الفاعل البشري ، لا هو بالأعلى ولا بالأدنى ، لا بالإلهي ولا بالشيطاني . . . لا بالمثالي ولا بالمادي . . . لا يدّعي أنّه منقذ البشرية ومخلصها، كما لا ينتظر أن ينقذه سواه ، وإنّما هو يتصرّف بوصفه مسؤولاً عن نفسه كما عن سواه »(12) . وهذا المصطلح ما بعد الإنسان ، أو الإنسان الجديد لا يتعلّق الأمر ، والقول لحرب ، بوجود كائن جديد، بقدر ما يتعلّق الأمر بنمط جديد من الوجود تتيحه الثورة التقنية والمعلوماتية ، شعار هذا الإنسان"لا تكن ذاتك"، و"لا غيرك"، بل "تغيّر عمّا أنت عليه"، لكي تستطيع

التواصل والتعايش مع غيرك ، بلغة الحوار والمفاوضة ، وثقافــة المشــاركة الفعالة والمسؤولية المتبادلة[13] .

إذا، هناك مجتمع جديد، هو المجتمع الإعلامي ، الذي تلاشت على ســطح نصّه الإلكتروني الحدود والخصوصيات ، بل تآكلــت الهويــات واضــمحلت الفروقات بين الشعوب والثقافات ، إذ إنّ التبادل الرقمي الخارق للحدود العابر للقارات قد أعلن عن ميلاد مجموعــات بشــرية جديــدة ، يصــطلح عليهــا المجموعات السبرانية أو الافتراضية ، التي لا ترضــى بمنطــق المجتمعــات القديمة ، حيث يُشترط مراعاة الروابط اللغوية والعرقية والدينية لقيام مجتمع ، إنّه المجتمع الافتراضي/ الأثيري VIRTUEL ، القائم على برامج المعلومات وشبكات الاتصال ، في عالم اصطناعي ، يقــوم علــى الخيــال الوســائطي/ الميديائيMEDIOLOGIQUE ، ومن ثمّ تصبح الحقيقة هي مجموع العوالم الافتراضية المصطنعة المتعددة عبر الوسائط ، المتواصلة اللاّمنتهية ، وتكــون اللّغة الرقمية بدل المكتوبة ، الأمر الذي يستدعي ولادة النصّ الإلكتروني ومعه القارئ السبراني CYBERNETIQUE ، ولعلّ من أهم خصوصيات اللّغــة الرقمية ، أنّها« لمسية أكثر ممّا هي يدوية ، وهي سريعة وآنية بقدر مــا هــي أثيرية وغير مادية »، خلافًا للمكتوبة التي تحمل طابع الخطي التسلسلي ، كما أنّ النصّ الإلكتروني« هو نصّ متشعب وعنكبوتي ، بقدر ما هــو ذو طــابع تعددي أو تركيبي . ولذا فهو يتيح مختلف وسائل الاتصال من سمعي وبصري ومرئي »[14] .

والقارئ السبراني هو قارئ عالمي ، وجــوده مقتــرن بوجــود الــنصّ الإلكتروني ، وهو ما يعطيه صفة القارئ الواقعي/ الفعلي ، الذي يصنع عالمه الافتراضي ويصطنع النصوص الرقمية متجاوزًا ذاته متحولا إلى مجموعة قراء عبر شبكات الاتصال والتواصل ، وليس هو ذلك القارئ المتوهم الــذي يبقــى

حبيس إيديولوجية الأنساق والسياقات المعرفية التي ينحدر منها، وما المترجم الآلي ، والأمر كذلك ، إلاّ ذلك القارئ الواقعي الذي لا يؤمن إلاّ بما هو تقني وصنعي ، ذلك الواقع المرئي المجسّم ، خلافا للعوالم الوهمية التي تقوم عليها الترجمة في النصوص المكتوبة . كما أنّ الاقتصاد ، في ظلّ الثورة المعلوماتية، أضحى قائمًا على المعرفة ، حيث باتت المعلومة المصدر الأوّل لإنتاج الثروة ، وتمّ الانتقال من مركزية السوق ونظام الملكية إلى نظام الخدمات والشبكات الإلكترونية العاملة في الفضاء السبراني . وهنا تكمن الحاجة إلى الترجمة الآلية، إذ « تتغيّر منظومات التواصل والترابط بين البشر، بقدر ما يتم الانتقال من اقتصاد الملكية والسوق المركزية والأشياء المادية إلى اقتصاد الشبكة والموجة والخبرة المعرفية . ممّا يؤدي إلى تغيير العقد الاجتماعي ، كما يتجلّى ذلك في نشوء روابط وتجمعات أو هيئات ومؤسسات تتجاوز نطاق الدول ، كما تتجاوز صلات الأرض والعرق أو اللّغة والديانة ، كالشركات المتعددة الجنسيات والجماعات الافتراضية التي تتواصل وتعمل ، بسرعة الضوء ، على مسافات بعيدة ، لكي تتبادل المنتجات الإلكترونية »[15] .

إنّه الإنسان الميديائي/ الوسيطي/ العالمي ، الذي كسر الحدود والفوارق التي وضعها فلاسفة العقل بين الداخل والخارج في الذات البشرية ، بدعوى الفصل المنهجي ، إذ تغيّرت علاقة الإنسان بفكره ، أي تلك الذات المفكّرة ، بمعنى «أنّه يحمل ذات المفكر على التخلي عن الاعتقاد بوجود فكر مجرّد يقوم بذاته ولذاته ، في محض تعاليه وجوهرانيته، وبمعزل عن مواده وخرائطه أو عن أدواته ووسائطه . فلا فكر من غير توسط ، خاصّة اليوم ، حيث تتوسّط بين المرء وأفكاره بنوك المعلومات والذاكرات الاصطناعية والآلات الذكية . بهذا المعنى يتحوّل الفكر عن جوانيته وفكرانيته ، لكي يصبح عبارة عن القدرة على الخلق والتحول ، عبر الاندراج في العالم والانخراط في صناعة الحياة »[16].

فالحقيقة ، تأسيسًا على هذا المنحى ، تحرّرت من سلطة العقل الدوغمائية ، حيث يتمّ تحديدها سلفا من خلال فروض العقل الأداتي/ المفكّر/ المتعـالي ، أو جعلها مماثلة أو مطابقة للواقع المُعطى ، أو جعلها حقائق ، من خلال إعـلان الشكّ ، فهي ، هاهنا، حقيقة تخلق ذاتها وتنتج أدواتها بفضل هذا العالم الجديد، العالم الوسائطي/ الميديائي ، عبر شبكات الأنترنت ، وتكنولوجيا المعلومات ، « . . . أصبحت بالدرجة الأولى ما يمكن خلقه واصطناعه بصورة متواصـلة وغير متناهية ، عبر الوسائط الفائقة والمتعددة ، مـن العـوالم والتشـكيلات والروابط الافتراضية ، كما تتمثّل أو تتجسّم فـي طرقـات الإعـلام وبنـوك المعلوَمات . . . أو في النماذج والطرز والأبنية التي يمكن اختراعها وتشكيلها بواسطة أبجدية الأرقام وأنظمة الأعداد . نحن إزاء عالم خيالي لا ينفـك فيـه الإنسان عن صنع ذاته وتغيير نفسه ، بخلق موضوعاته ومضاعفة مـوارده أو بتجديد أدواته وتغيير أفكاره »[17] .

هكذا يعبّر هذا التداخل بين مجالات المعرفة عن التواشج والاتسـاق بـين المصطلح الثقافي والاقتصادي ، وكيف أنّ كلاً منهما يعمل في إطار الأنظمـة المعرفية . وهو ما يدعو، في المحصلة ، إلى ضرورة الانفتاح على المؤسسات الاقتصادية باعتبارها تمثّل سلطة العقل المهيمن ؛ العقل الآلي/ الإلكترونـي ، الذي يعدّ تحولا أو صيرورة عقلية جديدة تجاوزت العقـل البشـري ، محدثـة شروخًا في بنيته ، إذ تمّ الانتقال من عالم الحقيقة/ المعنى/ الهوية/ التأصيل إلى أنظمة العلامات/ الاختلاف/ المغايرة/ التحويل . وانفتاح الترجمة علـى هـذه المؤسسات أضحىَ ، في ظلّ المجتمع المعولم ، ضرورةً ملحةً ، بل يعدّ ظاهرة صحّية ، تَعبر من خلالها المؤسسات الجامعية من عقليـة المجتمـع النخبـوي المتعالي إلى ثقافة المجتمع التداولي/ التواصلي ، الذي ينـدمج فيـه الثقـافي بالاقتصادي ، وتتآكل فيه الحدود وتتلاشى الفوارق بـين المجـالات ، ويُـدفع

بالترجمة إلى فضاءات جديدة تمتزج فيها الإبداعية/ الجمالية بالتواصلية والإقناعية ، لتصل إلى حوار الثقافات « فالعولمة الحقّة من منظور اللّغة تعني ـ أساسًا شفافيةَ التواصل ، وإسقاطَ الحواجز اللّغوية ، وفتحَ الطريق أمام حوار الثقافات وامتزاجها، وهو ما تسعى إليه ـ حاليًا ـ تكنولوجيا المعلومات في مجال الترجمة الآلية »[18] .

والمتتبع لبرامج التنمية في الدول الصناعية يجد أنّ الانفتاح على تكنولوجيا المعلومات يشكّل أولى الأولويات ، فاليابان ، مثلاً، تولي أهمية قصوى للترجمة الآلية من أجل كسر عزلتها، حيث أيقنت « أنّ مصيرها في عصر المعلومات يتوقف على مدى نجاحها في التصدي لهيمنة اللّغة الإنجليزية في تكنولوجيا المعلومات عمومًا، والإنترنت بصفة خاصّة »[19] . وقد تعالت الصيحات ، شرقًا وغربًا، للانفتاح على هذا الجديد المعرفي واحتضانه ، إذ يقول آلان جور، فيما ينقله نبيل علي : « دعونا نتجاوز الأيديولوجيا، لنتحرك معًا صوب هدف مشترك لبناء بنية أساسية معلوماتية عالمية لمصلحة جميع الدول ، من أجل خدمة اقتصادنا الحر ولتحسين خدمات الصحة والتعليم وحماية البيئة والديمقراطية »[20] .

ولم يقف الأمر عند حدّ هذه الدعوة ، بل إنّ انغلاقَ الدول ، وعدمَ انفتاحها على المؤسسات الاقتصادية ، وعلى كلّ ما جدّ في تكنولوجيا المعلومات التي أفرزتها العولمة سيؤدي ، حتمًا ، إلى حدوث فجوة لغوية حادة ، قد تفصل ، عندنا، مثلاً ، بين لغتنا العربية ولغات العالم المتقدّم : « فجوة في التنظير، وفجوة في المعاجم ، وفجوة في تعليم اللّغة وتوثيقها، وفجوة في معالجة اللّغة وترجمتها آليًا، وربّما يؤدي ذلك ـ في النهاية ـ إلى انتكاس تعليمنا كسابق عهده مرتدًا إلى اللّغات الأجنبية »[21] .

لكن ، بالمقابل ، هناك من الفلاسفة والمفكرين في أوروبا من حذّر من مغبّة هذا الانفتاح ، ومدى خطورة المجتمع الجديد، على غرار ما رأينا مع الجابري وبيار بورديو، فهذا جيل دولوز يتحسّر على ما حدث للفلسفة ، إذ تخلّت عـن دورها الحقيقي ، ألا وهو إبداع المفاهيم ، بل كان عليها أن تواجه كـلّ حـين منافسين وقحين وشتّامين لم يكن أفلاطون ليتصورهم ، لكن يضيف دولوز،« قد بلغ العار مداه أخيرًا حينما استحوذت المعلوماتية والتسـويق التجـاري وفـن التصميم والدعاية ، وكلّ المعارف الخاصّة بالتواصل، على لفظة المفهوم ذاتها، وقالت ، هذه من مهمتنا، نحن الخلاّقين ، إنّما نحن منتجو المفاهيم نحن وحـدنا أصدقاء المفهوم ، نجعله داخل حاسوباتنا. يصبح الإعـلام هـو الإبداعيـة ، والشركة هي المفهوم . . . كما أمست المفاهيم وحدها هي المنتوجات التي يمكن بيعها . والحركة العامة التي أبدلت النقد بالتطوير التجاري لم يفتها التأثير على الفلسفة . أصبحت الصورة الوهمية ، أو إيهام علبة الماكرونا، المفهوم الحقيقي ، وأصبح المقدّم ، العارض للمنتوج ، سلعة كان أو لوحة فنية ، هو الفيلسوف أو الشخص المفهومي أو الفنّان »[22] .

غير أنّ دولوز، بمنطق الفيلسوف ، لا يستسلم لما ألمّ بالفلسفة ، بـل تـراه يبحث عن الطريقة المجدية التي بها يجعلها تتعايش مع الجديد الطارئ، إذ يقول: « كيف يمكن للفلسفة باعتبارها شخصية عريقة اللحاق بأطر شابة فـي سـباق نحو كلّيات التواصل بهدف ترويج صورة تجارية للمفهوم ؟ إنّه لمـن المـؤلم بالتأكيد أن نتبيّن أنّ المفهوم يعني شركات للخدمات وللهندسة المعلوماتية . لكن كلّما اصطدمت الفلسفة بمنافسين متهورين وأغبياء، وكلّما التقـت بهـم داخـل مركزها، فإنّها تشعر بحيوية لأداء مهمتها وخلق المفاهيم التـي هـي قـذفات فضائية أكثر منها سلعًا»[23].

المجتمع التداولي ومشروع انفتاح الثقافي على الاقتصادي :

ترى لم هذه الثورة على هذا المجتمع الجديد ، مجتمع التواصل/ التداول ، هل هو تعبير ينمّ عن ثورة ونقض لكلّ ما هو جديد؟ قد يكون الأمر كذلك لو أنّ النّقد انطلق من المجتمعات التي لم تنتج هذه الأفكار، وهي الآن تبحث عن سبل لوقاية نفسها من مخاطر هذا المولود الجديد، بيدَ أنّ الرفض خرج من محضن توليد المعرفة ، وهو من فيلسوف الاختلاف دولوز. إذًا ، فالأمر يرتبط ، أولاً وقبل كلّ شيء ، بصراع المفاهيم والأفكار داخل المجتمع الأوروبي نفسه ، أو قل هي ثورة فلاسفة التفكيك على كلّ فكر يرتبط بالعقل الأداتي (اللوغـوس) ، حتّى ذلك الذي يُدعى بـ"العقل التواصلي"، بوصفه يشكل مرحلة حوار يـدّعي هابرماز وأنصار مدرسة فرانكفورت أنّها لإنقاذ العقل الأداتي ومعه الإنسان من الانتحار[24]، لكن الحقيقة ، والقول لدولوز، خلاف ذلك ؛ إذ لا تعـدو فلسـفة التواصل أن تكون جهدًا في سبيل البحث عن رأي شمولي ليبرالي ، بـل هـي مجرّد خداع جماعي يخفي وراءه كلّ ادعاءات الرأسمالية[25] .

إذا كان ما يذهب إليه دولوز، ومن لفّ لفّه ، ردّة على الثورة المعلوماتية ، ومن ثمّ على كلّ منتجات هذا المجتمع ، حتّى"العقل التواصلي"، الذي اعتبره أهل النظر في أوروبا بمثابة المنقذ للحداثة من سجن العدميـة ، يتحـوّل بـالمنطق الدولوزي إلى قناع يتزيّا به المجتمع الرأسمالي لتبديد كـل فكـر منـاهض أو مغاير، فهل يبقى دور المثقّف/ الفيلسوف ، إذ ذاك ، هو الرفض ونعتُ كلّ جديد بالدونية وحصرُه في الرأسمالية ، ألا يكون مثل هذا الصنيع خطابًا نخبويًا يعبّر عن نزعة التعالي لدى المثقّف الذي تحوّل إلى عقلية فاشية مستبدّة مغلقة تقـف حجر عثرة في تفعيل المجتمعات والإسهام في نهضـتها، فهـي، أي العقليـة النخبوية ، « تقود صاحبها، من حيث لا يعقل ، إلى التألّه وعشق الذات . ومن

هذا شأنه لا يرضى بالمساواة مع الغير ولا يقدر على تحرير النّاس ، بل يريد مجتمعًا أو ساحة يمارس عليها أحاديته وتمايزه ونرجسيته »[26] .

إذًا، فحقيقٌ بالمثقف إتقان لغة التداول ، ثقافة الحوار كمنحى حضاري يعبّر عن الحقّ في الاختلاف والمغايرة ، ولعلّ هذا ما يجعل مبدأ الشراكة بين المؤسسات الأكاديمية والمؤسسات الاقتصادية إقرارًا وترسيخًا لمبادئ مشروع المجتمع التداولي ، الذي تعبّر عنه جملة من المفردات أضحت اللّغة التخاطبية لدى الأفراد ، أو قل لسان حال المؤسسات ، مثل : عقلية الوساطة ، لغة التسوية، المنهج التعددي ، العقل التواصلي ، المعيار التبادلي ، الهوية المفتوحة على التعدد والاختلاف ، تداول المعلومات والأفكار ، تبادل الخبرات والخدمات ، فالوصول إلى إتقان لغة الشراكة والمسؤولية المتبادلة مع الآخر، قصد الإفادة من خبراته والتواصل معه في إطار بناء حضارة الإنسان المبدع المبتكر، الذي يستعين بغيره في سبيل تغيير المشهد الكوني والحصول على موقع في خارطة هذا المجتمع الجديد، حيث تتفاعل القطاعات بعضُها مع بعض ، ويتوسط « بعضها البعض الآخر، على النحو المخصب والثمين ، وبصورة تحقق التوازن المعقول والتلاؤم الخلاق بين الأداة والمعرفة ، أو بين المعلومة والفكرة، أو بين المنفعة والقيمة ، أو بين السوق والثقافة . . . بهذا يصبح من الأولى بالمثقف أن ينفتح ، بالذات ، على الذين يستبعدهم في القطاعات الأخرى، لتجديد مفاهيمه واستعادة فاعليته ، بالخروج من القوقعة الثقافية ، أي بمواجهة التخصص المفرط والفصل القاطع ، حتّى لا يستمر في إنتاج عجزه وهامشيته ، بترداد الكلام على الرأسمالية المتوحشة والليبرالية المتسلطة ، أو بالتحدث عن خوفه على الهوية والثقافة من تطور التقنية وانفجار المعلومة في زمن العولمة»[27] .

إذا سلّمنا ــ جدلاً ــ أنّ الحدود قد اضمحلّت بين الثقافة والاقتصاد، وأضحت أثرًا بعد عين في إطار عولمة المجتمع ، فهل هي مرحلة "نهاية المثقف"كما يشيعُ لدى أنصار هذا المشروع ، لتبدأ مرحلة جديدة بعدية ، هي"الاقتصاد المعرفي"؛ إذ العالم يصنع الحدث فيه أشخاص وأناس ، مثل"بيل غيتس"، ورجال الاقتصاد الناعم ومالكي شركات الإعلام أكثر ممّا يصنعه المثقفون أمثال تشومسكي وفوكوياما وبورديو . فهذا الأخير قد شنّ في نهاية القرن الماضي حملة شرسة على القنوات التلفزيونية ، متهمًا إياها بصنع مثقفين وهميين لا تربطهم صلة بالثقافة ، تمّ الاحتفاء بهم والترويج لهم لأنّهم نجوم أو فنانون أو لاعبو كرة أو أصحاب شركات ، فهي أي القنوات ، في اعتقاده ، تطلق أسماء على غير مسمياتها[28] .

إنّ الثقافة ، في ظلّ هذه التحولات ، أصبحت مرتبطةً ، أدرك أهلها ذلك أو غاب عنهم ، بالاقتصاد كسلطة معرفية مهيمنة ، أو قل إنّ المجتمع يرى إلى الثقافة بعين الواقع ، أي أنّ الثقافة لا تمثّل له تلك السلطةَ المتعاليةَ المحصورةَ في مجتمع نخبوي متعال ، بل هي في معناها الواسع « منظومة رمزية من القيم والمعايير تخلع بواسطتها جماعة بشرية معيّنة معنى على وجودها وتجاربها ونشاطاتها. . . الثقافة بهذا المعنى الواسع بوصفها صناعة الحياة وتنظيمَ الوجود المجتمعي ، من خلال أنظمة المعنى ومرجعيات الدلالة والأنساق اللاّشعورية التي تصنع المخيال الجمعي لشعب من الشعوب أو لطائفة من الطوائف ، والتي تتخلّل كلّ النشاطات الإنسانية والقطاعات الإنتاجية »[29] .

لذا، فالقول بتراجع الثقافة والنشاط الفكري وسيادة منطق السوق والسلع ، يرسم لنا خطر الاقتصاد على الثقافة ، ويسم النخبوي ، لأنّ الثقافة أو اللّغة ــ فيما نثبته ــ مرتبطةٌ بالصناعة والإنتاج ، باعتبارها بضاعةً أو سلعةً يتمّ تسويقها وتداولها، فشيوعها وانتشارها بين مختلف المجتمعات ، فهى أشبه بعملة رمزية،

أو بمصطلح"بورديو"رأسمال رمزي تُنتج ليتم تسويقها وبيعها، فتحتاج ، والأمر كذلك ، إلى سوق للصرف والتبادل ، فكما« أنّ في الثقافة إبداعًا ، كذلك فـــي السياسة إبداع ، وفي الاقتصاد إبداع . كلّ من يشتغل على ذاته لتغيير علاقتـــه بفكره وبالواقع هو منتج ومبدع . وهذا شأن الذي يخلقون مناخات للتواصل أو يفتحون أسواقًا للتبادل المثمر. إنّهم يسهمون فـــي النشـــاط الحضـــاري ، إذ لا حضارة من غير أسواق . ولقد تميّزت الحضارة العربية بكونها حضارةَ سوق ، كما يشهد على ذلك"سوق عكاظ"منذ الجاهلية ، وفيه كان يجري تبـــادل الســـلع وإلقاء القصائد»[30] .

هكذا، وفق هذه الرؤية ، ينفلت السوق مـــن نظـــرة الازدراء والاحتقـــار ويكتسب قيمة حضارية ، بل إنّ الإنسان نفسه ، لولا صفة التسويق لما استطاع أن يتواصل ويتبادل المعرفة مع غيره ، وما مقولة"العقل الأداتـــي"، أو"الـــذات العارفة/ المفكّرة"، التي أشاعها ديكارت وفلاسفة العقل من بعده إلاّ وهمٌ ، أزيح من خلاله الجسد كوسيط بين العقل والمعرفة ؛ فديكارت ، في المرجعيه الفلسفية الغربية ، هو الذي افتتح الكوجيتو(الأنا المفكرة)، فالعقل ، بالنسبة إليه ،« قوّة تمييز بين الحقيقة والزيف ، بوصفه الوحيد المؤهل لإدراك الحقيقة ، بواســـطة الاستدلال الذي يقوده إلى التيقن من حقيقة الأشياء »[31] .

هذا، والحال أنّ فصل الداخل(العقل) عن الخارج (الجسد) ، وإنْ كان فصلا منهجيًا إجرائيًا، فإنّه يحمل في طياته دعوةً إلى إهمال كلّ ما هو مادي وأرضي يعيق ملكة التفكير لدى الذات العارفة ، مع أنّه ، كان يسعى ، وقتئذ، من خلال هذه الدعاوى ، إلى ترويج لغة أمّته ، اللّغةِ الفرنســيةِ ، فـــي ســـوق التـــداول والانتشار، وهذا، فيما يحسب حرب ، هو الخطاب المضمر الذي ســـكت عنـــه المشروع الديكارتي ، إذ لا توجد فكرة « من غير جسد ترتبط به ، ولا مفهوم من غير خطاب يجسّده ، ولا منطق من غير تدوين يحفظـــه ، ولا عقيـــدة أو

أدلوجة من غير وسائل الإعلام وأجهزة الانتشار. باختصار لا فاعلية للأفكار إلاّ عبر الوسائط وتقنياتها. . . فالإنسان هو عارف بقدر ما هو صانع ، والأحرى القول إنّه عارف لأنّه صانع ، بمعنى أنّ المعرفة هي في النهاية صناعة ، فكيف اليوم وصنائع الإنسان من الحواسيب هي آلات أصبحت توصف بالذكاء الـذي هو خاصّية العقل والفكر؟»[32] .

إنّه منطق التجاوز والتحويل ، حيث يشيع الفكر بتجاوز سابقه والاختلاف عنه ، وكذا تحويل الأفكار إلى أشياء يعمل على نشرها وجعلها رائجةً حتّى تحقّق صفة المنتوج المتداول الذي لا يكون التواصل إلاّ بوساطته ، وهو حال الترجمة كمشروع ثقافي/ حضاري ، يعمل على ترجمة النصوص وتحويلها إلى الثقافات الأخرى ، وقد عرفت الحضارة العربية هذا الفهم في المناظرة الشهيرة التي جرت بين المنطقي متى بن يونس والنحوي أبي سعيد السيرافي ، فيما نقله أبو حيّان التوحيدي ، حيث «قال أبو سعيد:«فما تقول في معان متحوّلة بالنقل من لغة اليونان إلى لغة أخرى سريانية ، ثمّ من هذه إلى أخرى عربية؟»؛ فقال متّى : «يونان وإن بادت مع لغتها، فإنّ الترجمة حفظت الأغراض وأدّت المعاني وأخلصت الحقائق »[33] .

هكذا، تؤكد هذه المناظرة المعطى التحويليّ لفعل الترجمة ، وكيف يتم تداخل النصوص من خلال عملية النقل والتحويل ، بل بين التحويل والحفظ ، فتغدو الترجمة ، والحال هذه ، كتابةً ثانيةً للنصّ ، أي قراءةً وتأويلاً له ، ما دام أنّ القراءة بوصفها فعالية تنتج المكتوب[34]، هذا الأخير، بفعل القراءة ، يتعدّد نصوصًا، ويتجدّد ولادةً في كتابات لا تنتهي عددًا. فالتحويل ، إذًا، يقتضي التغيير، ليكون دور عملية الترجمة هو تسويق وتحويل النصوص من منطق لغوي إلى آخر، يستدعي التعبير والإضافة ، مع مراعاة منطق اللّغة المنقول

عنها، فنشهد، حينئذ، ميلاد نصّ جديد، يتجاوز صفة الجمالي/ الإبداعي ، إلى النصّ الحضاري/ الثقافي/ التواصلي/ التداولي/ الجامع .

وهو المنطق ، أي التحويل ، الذي ترفضه الميتافيزيقا الغربية في نسختها العقلية ، حيث تعتقد أنّ ترجمة النصوص أو نقلها بفعل التحويل إلى حضارة أخرى تشويهٌ للأصل وإجهازٌ عليه ؛ إذ الترجمة ، بالنسبة إليها، لا تبلغ مداها إلاّ بتحقيق مبدأ المطابقة والمماثلة بين لغة النصّ الأصل ولغة النصّ المترجم لها ، لأنّ مأرب الميتافيزيقا هو الوصول ، عبر الترجمة ، إلى حقيقة النصّ الأصلي ، على اعتبار أنّ الحقيقة/ المعاني واحدةٌ غيرُ متعدّدة ، وأنّ النصّ الأصلي من القداسة بحيث يغدو معه النقلُ الحرفيُ والأمينُ شرطًا أساسيًا لكلّ عملية ترجمةٍ أو تحويل .

ومردّ هذه القداسة للنسخة الأصلية ، هو شيوع تصوّر سائد في الثقافة الدينية المسيحية ، يُرجع الترجمة إلى أصل ديني ، يتجلّى في"قصّة برج بابل"التي وردت في التوراة، وتفيد بأنّ أولاد سام بن نوح حلّوا بعد الطوفان في أرض ما بين النهرين (أرض شنغار)، وشيّدوا فيها (في بابل) برجًا رأسه إلى السماء ، فعاقبهم الربّ على فعلتهم ، بأن أحبط ما صنعوه ، وفرّق شملهم وبلبل لسانهم ، كي لا يفهم بعضهم لغة بعض . ومن ثمّ غدت هذه القصّة ، في التراث الديني اليهودي والمسيحي تفيد اختلاط اللّسان[35] . لتتحوّل عمليةُ الترجمةِ ، وقتئذٍ، إلى وسيط أمين بين النسخة الشائهة/ المغمورة كنصّ ثانٍ ، والتي اكتسبت صفة الشرعية ، وغدت ، من ثمّ ، النصَّ/ الأصلَ/ المقدّسَ ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا ندحةَ للمترجم ، إذ ذاك ، عن الأمانة والوفاء للأصل ، وكأنّه آلة جامدة لا تعي ولا تعقل ، ولا حقوق لها في الإضافة ، وتصبح اللّغة ، وإن كانت متعدّدة ، واحدةً ، والثقافاتُ ، وإن تباينت ثقافةً واحدةً ، والحضارات ، وإن اختلفت حضارةً واحدةً ، إنّها ، ببساطة ،

ميتافزيقا العقل الغربي الذي يرى أنّه صاحبُ النسخة الأصلية ومركـزُ العـالمِ وصاحبُ العقل وأصلُ اللّغة ؛ إذ كما هو سائد في تراثهم العقدي (المسـيحي/ اليهودي) ، أنّه في البدء كانت الكلمة .

جماع القول :

إذًا، المصطلح ، وَفق هذه الرؤية ، لا يولد صدفةً ، بل هو ابن بارّ لهـذه الأنساق والأجهزة ، التي تعمل على الجمع بين مختلف أنماط الثقافة الواحـدة داخل تركيبة واحدة، المقول فيها هو الانفصال والاختلاف ، ولكن المسـكوت عنه هو الاتفاق والائتلاف . كما تجعلنا هذه النتائجُ ، العمل على وضع آليات لاستقبال الوافد إلينا من هذه المصطلحات، التي وإنْ كانت في مجال الخطـاب النّقدي ، مثلاً، فهي وثيقة الصلّة بمجال الاقتصاد أو السياسة، والبحث عن سبل توظيفها وجعلها فاعلة دون أن تفقد الذات خصوصيتها، لكن هذا لا يعني البتة أن تنغلق الذات على نفسها وتتجاهل الآليات النقدية التي اكتشفها الآخـر/ الغرب ، إذ الانفتاح على نتاجه يؤهل الذات في التمثّل ومن ثمّ الاستقلال الذاتي، بل إنّ الجدل معه ظاهرة صحّية تعبّر عن وصول الذات إلى مرحلـة الـوعي بالنّفس ، والقدرة على تعلّمِ آليات الحوار في آن . بل علينا أن نسعى ، على حدّ تعبير حرب ، إلى « عولمة هويتنا ووطننا بتحويل كلّ ما نخترعه أو نملكه من معطيات أو احتياطات مادية أو رمزية ، إلى فتوحات وإنجازات في مجال من المجالات . إنّنا لا نخدع سوى أنفسنا، عندما نتحدث اليوم عن أفخاخ العولمة ، أو عن هيمنة التلفزيون أو الحاسوب على الثقافة والهوية ، على مـا يتعامـل الكثيرون ، مع الابتكارات التقنية والتحولات الحضارية ، بلغة اللعن والرجم أو بعقلية السحرة »[36] .

لكن هذا الخوف الذي أبداه المثقفون حيال العولمة لم يكن رفضـًــا للثـــورة المعرفية كمرحلة جديدة في تاريخ البشرية ، وإنّما هو تخوّف من رقمنة الإنسان وأعلمته ، وقتل الجانب الإحساسي/ الشعوري فيه ، كما يســعى أنصـــارُ هـــذا المشروع إقرارَه ، أي إلغاء الدور الوجودي لهذا الكائن ، وعلي حرب نفسه في مرحلة تالية بدا متخوفا من هذا العالم الجديد، حيث يقــول : « إنّ تـــدفق المعلومات من جراء البث الفوري والعمل الافتراضي ، في الـــزمن الآنـــي ، يجعل كلّ شيء راهنًا أو مؤقتًا بانتظار المفـــاجئ أو الطـــارئ مـــن الرســـائل والمعطيات المتغيرة باستمرار. . . إنّها الحركة الدائمة التي تجعل من المتعذر السيطرةَ على قوانين التغير أو التحكم بنظام الأشياء . الأمر الذي يولد حالة من عدم الاستقرار بقدر ما يفقد المقاربات والمعالجات مصداقيتّها وفاعليتّها. . . أو بقدر ما يجعل المعالجات والحلول للمشكلات تولد مشكلات أخطرَ وأكثرَ تعقيدًا. وذلك هو معنى الأزمة »[37]. ومن هنا الخشية ، يضيف حرب ، «أن تـــؤدي الانفجارات التقنية والمعلوماتية إلى حلول الآلات الذكية والكائنات الرقمية مكان العقول البشرية والكائنات الرقمية مكان العقول البشرية والكائنات الحية »[38] .

هكذا، ومن على شرفة ما تقدّم ، يمكن القول ، إنّ المعرفـــة فـــي تحـــوّل مستمر، وإنّ دعاوى الانكفاء على الذات والانغلاق على منجزاتها يعيق طموح الكائن البشري في التحرر من كلّ سلطة تقف حاجزًا بينه وبين أحلامه في بلوغ أقاصي العالم واستكشاف خبيء هذا الوجود، وما لم يشأ الإفصاحَ عنه ، لـــذا، فالانفتاح على مشاريع العولمة واستقبالها بعقل نقدي معرفي ، قد يسهم في بلورة الدخيل/ الغريب وجعله ملكًا مشاعًا، لأنّه ، أوّلاً وآخرًا، من إبداع الإنسان ، كما يحسنُ التفكير في كيفية إعادة صياغة الأفكار الجاهزة ، وذلك بخلخلتها، وتعرية مركزيتها، وبعث البحث عن كينونة الإنسان في هذا الوجود، وتجلية الخطاب المقهور/ المغيّب/ المسكوت عنه ، ولا يكون ذلك إلاّ بإتقان لغة التداول وثقافة

الحوار كمرحلة جديدة في هذا الوجود ، مرحلة العقل التداولي ، الذي يسعى إلى كسر الثنائيات الوهمية ؛ الأنا/ الآخر، العقل/ اللاّعقل ، النخبة/ الجمهور، الثقافة/ الاقتصاد، كثنائيات تزيد من غبطة الكائن وتعرقل تواصله وتشلّ طاقته على التفكير والإبداع .

هوامش الدراسة :

(1) جيرار ميريه : في تاريخ الإيديولوجيات ، ج2 ، إشراف فرانسوا شاتليه ، ترجمة : أنطوان الحمصي ، وزارة الثقافة ، دمشق ، 1997 ، ص ص120 ، 121 .

(2) نبيل علي : الثقافة العربية وعصر المعلومات (رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي) ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ، يناير 2001 ، ص49 .

(3) فلوريان كولماس : اللّغة والاقتصاد ، ترجمة : أحمد عوض ، مراجعة: عبد السلام رضوان ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 2000 ، ص103 .

(4) المصدر نفسه ، ص107 .

(5) نبيل علي : الثقافة العربية وعصر المعلومات ، ص ص284 ، 285 .

(6) علي حرب : حديث النهايات ــ فتوحات العولمة ومآزق الهوية ــ المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء/ بيروت ، ط1 ، 2000 ، ص98 .

(7) المصدر نفسه ، ص ص39 ، 40 .

(8) محمد عابد الجابري : عشر أطروحات في "العرب والعولمة"، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1998 ، ص ص297 ، 308 .

(9) علي حرب ، المصدر السابق ، ص11 .

(10) علي حرب : أوهام النخبة أو نقد المثقف ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء/ بيروت ، ط2 ، 1998 ، ص ص14 ، 15 .

(11) علي حرب : حديث النهايات ، ص48 .

(12) المصدر نفسه ، ص ص194 ، 195 .

(*) يُنظر: فرانك تنلاند : الإنسان العابر ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، باريس ، 1997 .

(13) علي حرب ، المصدر السابق ، ص197 .

(14) علي حرب : العالم ومأزقه ـ منطق الصدام ولغة التداول ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء/ بيروت ، ط1 ، 2002 ، ص110 .

(15) المصدر نفسه ، ص ص142 ، 143 .

(16) المصدر نفسه ، ص151 .

(17) علي حرب : العالم ومأزقه ، ص108 .

(18) نبيل علي ، المصدر السابق ، ص282 .

(19) المصدر نفسه ، ص29 .

(20) المصدر نفسه ، ص24 .

(21) المصدر نفسه ، ص38 .

(22) جيل دولوز وفيليكس غتاري : ما هي الفلسفة ، ترجمة : مطاع صفدي وفريق مركز الإنماء القومي ، مركز الإنماء القومي ـ المركز الثقافي العربي ، بيروت/ الدار البيضاء ، ط1 ، 1997 ، ص35 .

(23) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

(24) عبد الغفار مكاوي : النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت (تمهيد وتعقيب نقدي) ، حوليات كلّية الآداب ، مجلس النّشر العلمي ، جامعة الكويت ، 1993 ، ص ص27 ، 31 .

(25) جيل دولوز ، المصدر السابق ، ص156 .

(26) علي حرب : العالم ومأزقه ، ص54 .

(27) علي حرب : حديث النهايات ، ص157 .

(28) علي حرب : أصنام النظرية وأطياف الحرية (نقد بورديو وتشومسكي) ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء/ بيروت ، ط1 ، 2001 ، ص ص29 ، 30 .

(29) علي حرب ، حديث النهايات ، ص ص122 ، 123 .

(30) المصدر نفسه ، ص127 .

(31) عمر كوش : أقلمة المفاهيم (تحولات المفهوم في ارتحاله) ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء/ بيروت ، ط1 ، 2002 ، ص67 .

(32) علي حرب ، حديث النهايات ، ص128 .

(33) أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ، تحقيق أحمد أمين ، أحمد الزين ، مكتبة الحياة ، بيروت ، دت ، ص ص108 ، 128 .

(34) منذر عياشي : الكتابة الثانية وفاتحة المتعة ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء/ بيروت ، ط1 ، 1998 ، ص ص8 ، 9 .

(35) طه عبد الرحمن : فقه الفلسفة ، ج1 ، الفلسفة والترجمة ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء/ بيروت ، ط1 ، 1995 ، ص62 .

(36) علي حرب : الأختام الأصولية والشعائر التقدمية (مصائر المشروع الثقافي العربي) ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء/ بيروت ، ط1 ، 2001 ، ص97 .

(37) علي حرب : العالم ومأزقه ، ص ص111 ، 112 .

(38) المصدر نفسه ، ص113 .